

تقرير التوحيد
لدى الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي
في رسالته (الرد على النصارى)

إعداد الباحث: فالح صالح فالح العنزي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجاً، والصلاة والسلام على من جاء للعالمين بشيرا ونذيرا، صلاة دائمة تذكر سرّاً وجهاراً، **وبعد:**

فإن الله- تبارك وتعالى- أرسل محمداً- صلى الله عليه وسلم- خاتماً للرسل، قد بشّر به الأنبياء السابقون، وآخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام، كما جاء في القرآن من خطابه لقومه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾[1] ، وكانت من مهمة النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يهدي ضلّال البشر كاليهود والنصارى.

---

(١) سورة الصف: الآية ٦.

منذ بداية دعوة الإسلام وظهوره كان لها أعداء تختلف مشاربهم وأحوالهم، فمنهم الكتابي ومنهم الكافر غير الكتابي ومنهم المنافق، ولذلك كان الإسلام محارب من جهات عدة، وكان المسلمون يواجهون تلك المعاداة على اختلاف صورها وأشكالها.

انشغل العالم الإسلامي في القرن الثاني والثالث بالصراعات الداخلية التي مدارها على تولي الخلافة وشؤون الحكم، وفي ذلك الحين كان احتكاك المسلمين بالنصارى كبيرا، ومع اتساع بقعة بلاد الإسلام وكثرة الداخلين فيه زاد مكر الأعداء، مما دفع علماء النصارى لاستغلال فرصة إنشغال المسلمين بالصراعات ببث الشبهات حول الإسلام وعقيدته وشريعته.

لم يكن انشغال عامة المسلمين بالصراعات والخلافات عذرا لعلماء المسلمين في عدم التصدي لتلك الهجمات النصرانية ، بل كان للعلماء دور بارز على مدار القرون، لأن سنّة الله تعالى جرت على نصر هذا الدين بالبرّ والفاجر، ومن أوائل من ألّف في تناول عقائد النصارى والرد عليهم هو الإمام القاسم الرسّي العلوي الزيدي (ت:٢٤٦هـ) – إلّم يكن الأول مما وصل إلينا– ، حيث ألّف رسالة تتناول فيها جملة من عقائد النصارى، فناقش بعضها نقاشا نفيسا ومميزا، واستعرض بعضها مكتفيا باستقباحها وتسفيه معتقدها دون نقاش وتفصيل، وكان لهذه الرسالة ميزة وقيمة علمية كبيرة، وذلك لعدم وجود ذكر لها في المؤلفات التي تختص بعلم مقارنة الأديان – في القديم والحديث – ، مما دفعني وشجعني للإقبال على تفحصها وتدقيق النظر فيها ، فعزمت على كتابة بحث يتناول تقرير التوحيد عند الإمام القاسم ومنهجه وأدلته في إنكار شرك النصارى وإثبات توحيد الله

تبارك وتعالى، فجعلت عنوانه: تقرير التوحيد عند القاسم الرسي من خلال رسالته: الرد على النصارى.

وإني أدعو الله تبارك وتعالى أن تكون هذه الدراسة نافعة لطلاب العلم خاصة وللمسلمين عامة، وأن تكون مثرية للمكتبة العلمية العقديّة، وأن يُكتب لي فيها الأجر والقبول والثواب، إن ربي سميع مجيب الدعاء. آمين. والحمد لله رب العالمين.

أهمية الدراسة:

يمكن توضيح أهمية الدراسة من خلال هذه النقاط:

- إن هذه الدراسة تسلّط الضوء على علم من أعلام الزيدية المتقدمين، بل ومن أكابرهم ومقعّدي مذهبهم، فمعرفة مفهوم مسألة مثل التوحيد يعد أمرا مهما.

- إن من حق الباحثين في علم مقارنة الأديان أن يفيدوا من منهج القاسم الرسّي في تقرير التوحيد بقصد إبطال العقائد النصرانية والذي يظهر فيه بوضوح تأثّره بالمنهج العقلي.

- إن مثل هذه الدراسة تفتح أبوابا من الأفكار العلمية البحثية لطلاب العلم والدارسين.

أهدف الدراسة:

- التعرّف على القاسم الرسّي حيث أغفلت الأبحاث العلمية دراسة شخصيته ومؤلفاته.

- معرفة التوحيد الواجب اعتقاده عند القاسم وأدلته عليه، ومن ثم نقده من خلال أقوال علماء الإسلام.

- معرفة مدى التوافق والاختلاف بين الإمام القاسم والمعتزلة خصوصا.

مشكلة الدراسة:

أدركت الأوساط العلمية أن للفرق الإسلامية وعلمائها جهودا في الدفاع عن الإسلام أمام العدوان النصراني بردودهم عليهم، وبيان فساد عقائدهم .

لذا يحاول هذا البحث التعرف على إمام من أئمة الزيدية المتقدمين وهو الإمام القاسم الرسي، وكذلك التعرف على مفهوم التوحيد الذي يقرره القاسم ويعتقد أنه التوحيد الواجب والأدلة عليه؛ من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس التالي:

من هو الإمام القاسم الرسي؟ وكيف يقرر التوحيد؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

- ما هو نسب الإمام القاسم؟ وولادته ووفاته؟
- ما النشاط العلمي الذي قام به القاسم؟
- ما موقف أتباعه منه؟
- ما مفهوم التوحيد الذي يعتقد القاسم وجوبه؟
- ما أدلة القاسم في تقريره التوحيد؟
- ما منهج القاسم في تقريره التوحيد؟

حدود الدراسة:

تقتصر هذه الدراسة على عرض مسألة تقرير التوحيد عند القاسم، وإفراد الله تعالى في مقابلة شرك النصارى التي تضمنتها رسالة الرد على النصارى، لذلك فهذا البحث يستثني ما سواها من المسائل العقدية والدعوية.

الدراسات السابقة:

لم أقف- في حدود اطلاعي- على دراسة تتناول تقريرات القاسم الرسي العقدية، وعرضها، وبسط القول فيها، بل وحتى ما أُلِّف في باب الفرق لم يكن

للقاسم فيها ذكراً، وإن ذكر كان الذكر تعريفاً له وترجمة مختصرة، ومن أجل هذا جاء هذا البحث الذي دونت فيه مفهومه للتوحيد.

منهجية الدراسة:

تقتضي طبيعة هذه الدراسة استخدام المنهج التحليلي، وذلك بدراسة رسالة الرد على النصارى وتفحّصها، ثم مطالعة مجموع رسائله لتأكيد الآراء التي ذكرتها ونسبتها إليه، في سبيل الموضوعية والإنصاف والتثبت.

ولذلك قسمت هذه الدراسة إلى مبحثين؛ الأول ذكرت فيه ترجمةً للقاسم الرسي، وأما الثاني فجعلته في مفهوم التوحيد وتقريره وأدلته.

خطة البحث: يتكون من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: **حياة الإمام القاسم الرسي**، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الإمام القاسم ونسبه

المطلب الثاني: مولد القاسم ونشأته ووفاته

المطلب الثالث: طلب القاسم للعلم

المطلب الرابع: شيوخ القاسم وتلاميذه

المطلب الخامس: عقيدة القاسم ومذهبه الفقهي

المطلب السادس: مؤلفات القاسم

المطلب السابع: الثناء على القاسم

المبحث الثاني: **تقرير التوحيد عند القاسم**، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم التوحيد عند القاسم

المطلب الثاني: منهج القاسم في الاستدلال على التوحيد

الخاتمة: وفيها النتائج والتوصيات.

المبحث الأول
حياة الإمام القاسم الرسي

سأتناول في هذا المبحث ما كان له صلة في حياة الإمام القاسم، وأجعله على مطالب، وكل مطلب من المطالب يتناول جانباً من الجوانب.

المطلب الأول: اسم الإمام ونسبه [١].

هو الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب-عليهم السلام- أبو محمد المعروف بالرسّي، منسوب إلى بقعة جهة المدينة النبوية يقال لها الرس[٢]. وهو شقيق ابن طباطبا محمد بن إبراهيم، وأعقب من الأولاد ثمانية، وأميزهم الحسين بن القاسم وكان زاهداً ومن ذريته أئمة صعدة.

المطلب الثاني: مولد الإمام القاسم ونشأته وأعماله ووفاته.

لقد نشأ القاسم بن إبراهيم الرسي في أحضان أسرته، فبدأ تعلمه على أيدي علماء أهل بيته حتى بلغ وفاق أقرانه، وظهرت عليه علامات البداية، واستمر في

(١) انظر: المحلي، العلامة حميد الشهيد المحلي، الحدائق الوردية (ت ٦٥٢) (١\ص٧) تحقيق: د. المرتقى بن زيد المحطوري الحسني، مطبوعات مكتبة مركز بدر العلمي – صنعاء، ط١، (١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م). الحموي، الوافي بالوفيات،(٢٤ \٨٣)، دار صادر- بيروت، ط٢ ، ١٩٩٥م. الزركلي، الأعلام (٥\١٧١)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م. بروكلمان، تاريخ التراث العربي، (٢\٢٩٤)، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف-القاهرة، ط٤. عبدالسلام الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية (ص ٧٥٩)، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م . عبد الله بن الإمام يحيى بن الحسن، الجداول الصغرى مختصر الطبقات الكبرى (٢\٣٣٠)، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية-عمّان. المؤيدي، التحف شرح الزلف (ص ٤٩)، مكتبة بدر للطباعة والنشر-صنعاء.ط٣ ، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

(٢) وهو جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة.

التعلم حتى ساد قومه وأصبح فقيهاً وشاعراً ومناظرا[1].

ولد القاسم في جبال قدس، تقع على أطراف المدينة، وترعرع فيها وتميز، والناظر في سيرة القاسم يجد أنه قد شبّ على اعتقاد أن لهم ملكاً مغتصباً من قبل الأمويين، وأن الخلافة من حقهم، فتجد في رسائله دائما ما يذكر الولاة وبطانتهم بالسوء، وأنهم انحرفوا عن الصلاح، فكبُر معه هذا الأمر حتى ظهرت حركة أخيه محمد بن إبراهيم لما دعا لنفسه بالبيعة فكُلّف أن يكون رسولاً يدعو لأخيه بالبيعة فكانت هي أميز أعماله في حياته.

وإن فترة وجود القاسم بمصر تعتبر فترة تشكل الشخصية لما حوته من نشاطات علمية بين تأليف ومناظرة وإفتاء ومراسلة، وكان يشتغل بالفقه والفلسفة[2]، وكذلك نشاطه السياسي في إرساله الرسل يدعو لنفسه بعد مقتل أخيه، وقامت له دعوة في بلخ[3] والطالقان[4] والجوزجان[5] على يد بني عمه،

---

(١) انظر: الوجيه، عبدالسلام، أعلام المؤلفين الزيدية (ص ٧٥٩)، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م . الزركلي، الأعلام(٥\١٧١). المؤيدي، التحف شرح الزلف (ص ٤٩)، مكتبة بدر للطباعة والنشر-صنعاء، ط٣ ، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م . أبو نصر البخاري، سر السلسلة العلوية (ص ٢٨)، منشورات المكتبة الحيدرية - النجف، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م

(٢) انظر: حسن خضيري أحمد، قيام الدولة الزيدية في اليمن (ص ٥٣-٥٤)، الناشر: مكتبة مدبولي- القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

(٣) البلد المعروف من خراسان، خرج منه خلقٌ كثير من العلماء، والزُهاد، وغيرهم ولهُمْ تاريخ. انظر: الحموي، شهاب الدين الرومي، معجم البلدان، (٤٧٩/١)، دار صادر- بيروت، ط٢.

(٤) أكبر مدينة بخراسان طالقان، وهي مدينة في مستوى من الأرض ، ولها نهر كبير وبساتين . الحموي، معجم البلدان،(٦/٤).

(٥) وهو اسم أرض واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو وبلخ. انظر: الحموي، معجم البلدان، (١٨٢/٢).

فحاربته جيوش العباسيين وحالت دون بلوغه أبناء عومته، فهرب إل جبال الرس وتخفى مرة أخرى.

وعاش الإمام القاسم هو وأولاده وأهل بيته متخفياً بقية عمره حتى توفي في الرس سنة ٢٤٦ هـ.

المطلب الثالث: طلب القاسم للعلم.

لقد عرفنا في المبحث السابق أن القاسم نشأ في أحضان أهله من آل البيت يتعلم منهم العلم ففاق أقرانه، وكانت فترة مكوثه في مصر تعتبر علامة فارقة في مسيرته العلمية، حيث تظاهر بالانشغال بالعلم والفقه والفلسفة والشعر فقط، ويظهر ذلك في رسائله، والمتأمل لآرائه يجد التقارب بينه مع آراء المعتزلة(١).

عُرف القاسم بقوة الحجة والدهاء والفطنة والجدل، فناظره ملاحدةٌ ونصارى ومخالفون له، وكان مطلعاً على أقوال المخالفين له من النصارى مثلا؛ فيورد النصوص الطويلة من كتبهم المقدسة، حتى إنّه لُقّب بترجمان آل الرسول(٢) ، فهو يقول عن نفسه: "وإني لما زاملت قلة الآثام، وقضيت في أفانين الكلام، وناسمت كثيراً من علماء الأنام؛ أطلعت على مكنون من العلم جسيم، واستدللت على نبأ من ضمائر القلوب عظيم، لأن صحيح الجهر يدل على كثير من مكنون السر"(٣)، وكان لأثر هذا الطلب ظهوراً على شخصية القاسم العلمية من خلال مؤلفاته ومنها: تميزه بثروته اللغوية التي عرف بها أهل زمانه لولا تلوثه بلوثة علم

---

(١) تستحق آراؤه أن تفرد في بحث علمي ومقارنتها مع آراء المعتزلة ومدى تقاربها.

(٢) عبدالله بن الإمام الهادي ت:١٣٧٥هـ ، الجداول الصغرى مختصر الطبقات الكبرى،(٢\٣٣٠)، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية–عمّان .

(٣) المقدمة لمجموع الرسائل، (١\ ٢٧-٢٨).

الكلام في تقرير مسائل الاعتقاد، حيث التقعر والتطويل والسلوك بالمتلقي السبل الوعرة.

ومن أثر علمه عليه ما نقل عنه من مواعظه ووصاياه -نظماً كانت أو نثراً- التي تميزت بالبلاغة والبيان، وأبرزها وصيّته بالقرآن والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الرابع: شيوخ القاسم وتلاميذه.

شيوخه: عرفنا في المطلب السابق اجتهاد القاسم في طلب العلم حتى قال إنه ناسم كثيراً من العلماء وطلب على أيديهم العلم واستفاد بلقائهم، ومنهم: والده إبراهيم بن إسماعيل وأبو بكر بن أبي أويس المدني(١) وإسماعيل بن أبي أويس(٢) وأبو سهل سعد بن سعيد المقتري(٣) وغيرهم كثير.

وأما تلاميذه فهم كثير لسياحة القاسم في البلدان المتعددة، ومروره فيها جعل له تلاميذ كثر أخذوا عنه في الكلام والتفسير والفقه، وأميز من أخذ عنه العلم هم أولاده: محمد والحسن والحسين وسليمان، وغير أولاده كمحمد بن منصور المرادي، ومحمد بن موسى الحواري الذي رو عنه فقها كثيرا، وجعفر بن حرب المعتزلي الذي أعجب به حتى قال متحسرا على عدم معرفته القاسم من قبل: أين كنا عن هذا الرجل فوالله ما رأيت مثله، وغيره من التلاميذ ممن أُعجب به.

(١) الهادي، الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، الأحكام في الحلال والحرام (١\٣٤٦). جمع وترتيب علي بن الحسين بن أبي حريصة، تحقيق: د.المرتضى بن زيد المحطوري، مكتبة بدر للطباعة، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

(٢) المصدر السابق (١\٣٥٢).

(٣) المصدر السابق (٢\٥٢٩).

المطلب الخامس: عقيدة القاسم ومذهبه الفقهي.

إن الناظر لرسائل الإمام القاسم يجد آراء متشابهة إلى حد كبير لآراء المعتزلة في أصولهم الخمسة، ففي الاستدلال على التوحيد نجد نوع تشابه لأدلة المعتزلة على تقرير التوحيد من خلال أدلة التمانع والحدوث والصنع والإتقان، وفي الصفات يوافق المعتزلة تماماً وهكذا يتقارب معهم في بقية الأصول الخمسة.

وأما عقيدته في خلافة الشيخين فهو يرى بطلان خلافتهما، وأن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، لأنه يقرّر أن أبا بكر وعمر خالفا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهما لا يصلحان للإمامة فقال عن عمر: "فهذا لا يصلح للإمامة، ولا من كان إذا حكم بحكم فقيل له أصبت يا أمير المؤمنين يعلو بالدرة، وثم يشهدون له أن السكينة تنطق على لسانه، يخبرون عنه بخلاف ما يخبرون عن نفسه، ويجعلون له من التوفيق ما يجعلون لرسول الله"[(١)].

ويرى وجوب تقديم علي بن أبي طالب على غيره، ومن قدم غيره فقد خالف في ذلك الصواب، ويعتقد أن من حارب عليا فهو محارب لله تعالى ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن قعد عنه بغير إذنه فهو ضال هالك في دينه[(٢)] ، وتنقّصه من الصحابي الجليل معاوية رضي الله عنه.

مذهبه الفقهي: إن مذهب الإمام القاسم الفقهي هو مذهب الزيدية في زمنه، والناظر في رسائله يجده على دراية بالمذهب الحنفي، وهذا ما أكده شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو زهرة بقوله: "القاسم بن إبراهيم الرسي هو كبير طائفة القاسمية، قد نشأت ببلاد الحجاز ... وكان على علم دقيق بالمذهب الحنفي مع

---

(١) مجموع الرسائل (٢\٢١٢-٢١٣).

(٢) انظر مجموع الرسائل (٢\٢١٩-٢٢٠).

فقه الحجاز وله فقه ممتاز جيد... وإن مذهب القاسم وتخريجاته واختياراته كان لها شأن باليمن"(١) وآراؤه الفقهية مثبوتة في كتاب الأحكام في الحلال والحرام لعقيدة الإمام يحيى بن الحسين.

المطلب السادس: مؤلفات القاسم.

تعتبر مؤلفات الإمام القاسم من أقدم المؤلفات للزيدية على وجه الخصوص، ورغم هذه المكانة العلمية فإنا نجد إغفالاً للأبحاث العلمية حول هذه الشخصية، ومؤلفاتها التي تمزيت بالفطنة والقوة، فقد ترك للمكتبة العلمية موروثاً ثميناً يفيد الدارسين في الفرق عموماً والمعتزلة والزيدية خصوصاً.

تميزت مؤلفات الإمام القاسم بالتنوع في الفنون، بين عقيدة وفقه وتفسير وزهد، فمن تلك المؤلفات:

١ ٢- الدليل الكبير والدليل الصغير:

كلا الرسالتين كان في الرد على الفلاسفة في إثبات وجود إله خالق، وهما يعتبران مقدمة في علم الكلام لما حوته من مصطلحات كلامية وأساليب فلسفية.

٣- المسترشد:

تحرر فيه القاسم آراء المعتزلة حتى كانت سببا لثناء الموافقين له عليه.

٤- الرد على الرافضة.

٥- تفسير سور القرآن.

٦- الناسخ والمنسوخ: وهي رسالة تكلم فيها عن النسخ وأحكامه وأنواعه ومثل على ما يقول.

---

(١) أبو زهرة، محمد محمد أحمد مصطفى ،الإمام زيد حياته وعصره (ص ٤٩٥-٤٩٦)، دار الفكر العربي.

٧- الهجرة للظالمين(١):

وهي رسالة تختص في فقه التعامل مع أهل المعاصي، وبين فيها صفات أولياء الله وما يجب عليهم من الإنكار للمخالفات وتحذرهم مجالسة الظالمين لأنفسهم وغيرهم كما بين وجوب الهجرة من دار المعاصي وقد جعلها شرطا للإيمان.

١- رسالة المكنون(٢):

وهي رسالة لطيفة في محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال والرقائق، وبيّن فيها صفات العالم الرباني وصفات الحكيم والغافل والأحمق وغيرها من الرسائل وغالبها تكون جوابا على سؤال ورد إليه أو عرض عليه من جلسائه حتى جعلوه المبرز في أصناف العلوم.

المطلب السابع: الثناء على القاسم.

لقد تابع علماء الشيعة والزيدية في الثناء على الإمام القاسم في إمامته، وعلمه، وزهده، وورعه، حتى كان يسمى بنجم آل الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما في إمامته: قال الحسن بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي القاسم لما عرض عليه البيعة: "يا أبا محمد، والله لا يتقدم بين يديك أحد إلا وهو مخطئ، أنت الإمام وأنت الرضي قد رضيناك جميعا(٣)". وبلغ ببعضهم الثناء عليه حتى جعلوه إماما؛ من اتبعه نجا ومن خالفه ضل، مثل الهادي بن إبراهيم الوزير في قوله: "ومن أنصف وبحث وطالع السير والأخبار، ونقب عن الأحوال والآثار تعرّف صحة ما قلناه، وتحقق صدق ما ذكرناه ومن جعل القاسم بن إبراهيم بينه

(١) انظر: مجموع الرسائل (٢\٢٣٩-٢٨٩).

(٢) انظر: السابق (٢\٢٩١ - ٢٨٩).

(٣) انظر: مقدمة المحقق لمجموع الرسائل.

وبين الله تعالى فقد نجا[1]"، وأما الثناء على علمه فهو كثير، ومنه قول الحاكم المحسن بن كرامة الجشمي: "فأما القاسم عليه السلام فلا شبهة في فضله وعلمه وله الكتب المعروفة والأصحاب، فأما الزهد فأشهر من الشمس".

وكان لورعه وزهده وشجاعته نصيبا واسعا من الذكر والثناء، ومن ذلك قول أبي نصر البخاري: "الإمام القاسم بن إبراهيم صاحب المصنفات والورع والدعاء إلى الله سبحانه ومنابذة الظالمين[2]"، وبلغ الثناء عليه أن جعلوا المخالفين والموافقين يجمعون على فضله، قال الحسن بن بدر الدين: "كان الإمام القاسم على السلام معروفا بالفضل، أجمع على فضله المخالف والموالف ولم يذكره عالم عارف وبلغ في الزهد مبلغا عظيما وكان بجميع العلم عليما[3][4]". وسالت أقلام أتباعه الموافقين له المنتمين لمذهبه في مدحه والثناء عليه[5].

(١) الإمام الهاديِ بن إبراهيم الوزير، نهاية التنويه في إزهاق التمويه (ص ٢١٧)، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية.

(٢) سر السلسلة العلوية ، (ص ٢٨).

(٣) وهذه مبالغة مذمومة، فالله سبحانه وتعالى وحده الذي هو بكل شيء عليم.

(٤) ينابيع النصيحة (ص ٤١٧) بواسطة مقدمة محقق المجموع.

(٥) وللاستزادة: ينظر في مقدمة المحقق لمجموع الرسائل حيث أورد فيه جملة من التقول في الثناء على الإمام القاسم.

المبحث الثاني
التوحيد عند الإمام القاسم الرسي

تمهيد:

إن من أهم المسائل التي ينبغي الاستفتاح بها في مناقشة المخالفين لدين الإسلام هو توحيد الله تعالى، لأنه أصل أصيل لا يمكن لمخالف أن يصمد أمامه، ولذلك جاء القاسم في رسالته واجتهد في تقرير التوحيد –وفق منهجه الاعتزالي–، وجاء بالأدلة العقلية والنقلية التي من خلالها يبطل شرك النصارى، ويُظهر فساد اعتقادهم في الله، ومن أجل هذا أفردت مبحثاً خاصاً أبيّن فيه مفهوم التوحيد عنده ، ومنهجه في تقريره ، وأدلته التي يستند عليه.

المطلب الأول: مفهوم التوحيد.

لقد سار القاسم في تعريفه للتوحيد طريقة شيوخه المعتزلة، وإعطائه الجانب الأكبر في مؤلفاتهم، واستفراغ الجهد في تقرير آرائهم، وتعريفهم قائم على أصل النفي بحجة عدم الوقوع في التمثيل والتشبيه.

لقد عرّف القاسم التوحيد في موضع غير رسالة الرد على النصارى، رأيتُ من الضروري ذكره، وإن كان معنى هذا التعريف ظاهرا في رسالته التي ندرسها.

قال القاسم في رسالة أصول العدل والتوحيد: "والنفي هو نفي التشبيه، وهم التوحيد وينقسم على ثلاثة أوجه".:

١- الفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، حتى يُنفى عنه جميع ما يتعلق بالمخلوقين.

٢- هو الفرق بين الصفتين حتى لا تصف القديم بصفة من صفات المحدثين.

٣- الفرق بين الفعلين حتى لا يشبّه فعل القديم بفعل المخلوقين"[(١)].

وقال القاسم معرفا للتوحيد كما في جوابه للرجلين من أهل طبرستان: "أن تعلم أن الله واحد أحد، ليس له ند من الأشياء ولا ضد؛ لأن الند لما بناه مكافٍ، والضد لما يضاده مناف، وليس له من الأشياء كلها ما يكافيه، ولا يضاده جل جلاله فيها فيه، فليس هو جل ذكره كشيء ... ولبُعده سبحانه من شبه الأشياء ومماثلتها، ولتعاليه عن مشابهة جزئية الأشياء وكليتها؛ لم تدركه ولا تدركه أبدا عين ولا بصر ولا يحيط به من الناظرين عيان ولا نظر"[(٢)]، والمتأمل لتعريفه للتوحيد يجد التوافق مع تعريف المتكلمين السابقين له واللاحقين[(٣)].

ويظهر خطؤهم في جهلهم هذا التوحيد الواجب اعتقاده، حتى جعل القاسم من لم يعتقد ذلك أو جهل شيئا منه كان مشركا غير موحد[(٤)].

والشبهة التي دفعته للقول بهذا: أن اعتقاد صفة قديمة لله تعالى – والقدم أخص وصف له- يؤدي ذلك لتعدد القدماء، فيكون لله شركاء في الألوهية[(٥)]،

---

(١) رسالة أصول العدل والتوحيد: لعدة مؤلفين: تحقيق محمد عمارة، (ص ١٣١-١٣٤)، دار الشروق، ط٢ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٨م .

(٢) باختصار يسير، مسألة رجلين من أصل طبرستان، مجموع الرسائل (١\٦٣٧).

(٣) انظر: عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة (ص ١٢٨)،(ص ٢٧٧)، تحقيق: عبد الكريم عثمان. ط: الأولى ١٣٨٤ هـ الاستقلال – مصر.

(٤) انظر: مجموع الرسائل (١\٦٤٩). عبدالجبار، المغني في أبواب العدل والتوحيد، (٤\٢٤١)، تحقيق: إبراهيم مدكور، وطه حسين، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة. شرح الأصول الخمسة (ص ١٢٨)

(٥) انظر: عبدالجبار ، المغني في أبواب العدل والتوحيد، (٤\٢٤٥).

وأصل هذه الشبهة أتتهم من مطالعة كتب الفلاسفة[١]، وبلغ تعصّب هؤلاء لهذا الأصل أن احتجوا به على مخالفيهم لمشابهتهم قول النصارى في الأقاليم-بظنهم-.

وخلاصة مفهوم التوحيد عند القاسم هو مجرد الاعتقاد بتوحيد الربوبية فحصر معنى التوحيد في هذا النوع وأهمل توحيد الألوهية، فلا تكاد تجد له ذكرا وفسر الإله بالرب.[٢]

نقد تعريف التوحيد عند القاسم:

يظهر خطأ القاسم في تعريف معنى التوحيد الذي أمر الله به حيث فسره بالربوبية، وعلى ذلك سار المتكلمون قبله وبعده حيث بذلوا الجهد لإثبات هذا النوع من التوحيد، واجتهدوا في تنويع الأدلة ودفع الإشكالات والاعتراضات ليسلم لهم اعتقادهم، وليس الأمر كذلك، فالغاية الأولى التي بعث الله من أجلها الرسل وأنزل الكتب هي توحيد العبادة، **قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾** [٣] ، أما توحيد الربوبية فلم ينكره مشركو العرب ، وبيّن الله تعالى اقرارهم به ، ورغم ذلك سماهم كافرين.

قَالَ تَعَالَى:﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ ﴾ [٤] ، "**قَالَ تَعَالَى:﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ ﴾**، و**قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ**

---

(١) الشهرستاني،أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد، الملل والنحل(١\٤٦).مؤسسة الحلبي.

(٢) انظر: مجموع الرسائل (١\٦٤٩).

(٣) الأنبياء: الآية ٢٥.

(٤) سورة المؤمنون: الآيتين ٨٦ – ٨٧

﴿خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾ [(١)] ، ومثل هذا كثير في القرآن، فإقرارهم بالربوبية لم ينفعهم ولم تُحرم به دماؤهم ، بل قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنكارهم توحيد الألوهية وإشراكهم بالله في عبادته، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا أهمية توحيد الربوبية: "وهذا التوحيد (معنى الربوبية) هو من التوحيد الواجب، لكن لا يحصل به الواجب، ولا يلخص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر، الذي لا يغفره الله ، بل لا بد أن يخلص لله الدين فلا يعبد إلا إياه فيكون دينه لله"[(٣)].

فالله تعالى أوجب علينا إفراده بالعبادة وحده لا شريك له ، واعتقاد أن الخلق والرزق والإحياء وغيرها لله تبارك وتعالى ، وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال والجلال.

---

(١) الزخرف: الآية ٩

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٦.

(٣) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ،اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ،(ص ٣٢٣)، تحقيق: ناصر العقل، دار عالم الكتب-بيروت، ط٧ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

المطلب الثاني: منهج القاسم في الاستدلال على التوحيد.

سلك الإمام القاسم في الاستدلال على وجود الله وربوبيته طريقة المتكلمين الأوائل، وإن اختلف معهم في بعض المسائل والمتأمل لكلامه وتقريراته يجد ذلك جليا واضحا، فالمعتزلة يجتهدون في تقرير الربوبية، وأن الله تعالى خالق العالم، واحد لا شريك له في أفعاله، ولو كان احتجاج القاسم ببعض أدلة المتكلمين العقلية لكون المناظَر هم النصارى لما انتُقد، لكن هذا المنهج سار عليه في تقريره لعقيدة المسلمين، وهو قائم على تقديم الحجة العقلية على حجية الكتاب والسنة ، وحصر معرفة الله تعالى بحجية العقل(١) ، فسلك لذلك الطرق الوعرة واستخدم الأقيسة المنطقية للدلالة على عقيدته.

لقد حوت هذه الرسالة – الرد على النصارى — أدلة تقريره للتوحيد وهي على قسمين من الأدلة: عقلية ونقلية.

القسم الأول: الأدلة العقلية :

١- دليل الحدوث:

تعريفه لغة: يقول الخليل: "والحديث الجديدُ من الأشياء، ورجل حَدثٌ كثير الحديث، والحَدَثُ الآبتداء(٢)" ، والحاء والدال والثاء أصل واحد، وهو كون الشيء لم يكن، يقال حدث بعد أن لم يكن(٣).

---

(١) انظر: مجموعة مؤلفين، أصول العدل والتوحيد ، (ص ١٢٦).

(٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن (١٧٧/٣)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

(٣) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ،معجم مقاييس اللغة ، (٣٦/٢)، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م. وانظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل ،لسان العرب (١٣١/٢)،دار صادر بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ. أبو العباس

والحدوث هو تجدد وجود، فهو حادث وحديث، ووجود شيء يكون بعد عدم، والحديث نقيض القديم.

تعريفه اصطلاحا:

هو أصل من أصول المتكلمين عموماً والمعتزلة خصوصاً ، وإن هذا الدليل هو المسلك المشهور للمعتزلة، وأخذه عنهم من بعدهم غالب أئمة المتكلمين.

وخلاصة الدليل: أن هؤلاء يقولون: لا يعرف صدق الرسول حتى يعرف إثبات الصانع، ولا يعرف إثبات الصانع حتى يعرف حدوث العالم، ولا يعلم حدوث العالم إلا بما به نعلم حدوث الأجسام، ثم استدلوا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلو من الحوادث فهو حادث.

والقول في إثبات حدوث العالم عند المتكلمين يُبنى على مقدمات تشرح العبارات والمصطلحات الفلسفية كالجوهر والعرض وغيرها، فيستدلون على ربوبية الله ووجوده الذي هو التوحيد عندهم؛ بدليل الحوادث، ويوضح القاضي عبد الجبار هذا الدليل ومسلكه بقوله: "إذا أردت أن تستدل بالأعراض على الله تعالى فمن حقك أن تثبتها أولا، ثم تعلم حدوثها ثم تعلم أنها تحتاج إلى محدث فاعل مخالف لنا وهو الله تعالى"(١).

وهذه المقدمة هي لمحاولة فهم كلام القاسم ومراده، فمن استدلال القاسم بهذا الدليل قوله: "ولكان حينئذ لكل ما كان منه ووجد عنه من فروعه وعنه ، ما كان من القول له، إذ كان المتولد منه مثله، وكذلك يوجد لكل فرع كان من أصل ما

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/١٢٤)، المكتبة العلمية-بيروت.

(١) القاضي عبدالجبار، ،شرح الأصول ،(ص ٩٢).

يوجد لأصله من التولد مثلا بمثل، كفرع ما يُرى من الأشياء كلها التي تتولد يقينا عيانا من نسلها، مثل ما يتولد غير مرية من أصلها، كما يرى من ولادة الابناء لمثل ما يتولد من الآباء سواء ذلك كله سواء"(١) ، فللقاسم آراء من خلال إثبات التولد والإيجاد بعد عدم من إبطال وجود خالق، كهذا التولد وهذا الموجَد، وحتى لا أسهب في تفصيل هذا الدليل، يمكن إيجاز القول بأن هذا الدليل يشمل أمرين:

أ- الاستدلال بحدوث الذوات على وجود واجب الوجود:

وكيفيته أن يقال: الأجسام المحدثة وكل محدَث فله محدِث العلم به ضروري، وبيّن المتكلمون أن الجسم لا يخلو من الأكوان – وهي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون – التي هي حوادث، وجب أن يكون محدثها مثلها.(٢)

ب- الاستدلال بثبوت الصفات على وجود واجب الوجود:

وكيفيته أن يقال: إن الأجسام محدثة وكل محدث صفاته محدثة، وإذا كان هو لا بد له من محدث وكذلك صفاته، لأنهم يرونها يجوز عليها العدم(٣).

ويتضح معنى كلامه أكثر لما قال: "فكل شيء أبدا كان ممكنا في أصل واحد كون وجوده، فمثله ممكن سواء في نسله ومولوده، لا يمتنع لما قلنا به في ذلك

(١) رسالة الرد على النصارى للقاسم ص ١٧ وانظر مجموع الرسائل (١/٢٩٤-٢٩٥)، (١/٣٦٩-٣٧٧).

(٢) انظر: القاضي، شرح الأصول الخمسة ، ص ١١٣-١١٤.

(٣) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، (٣٠-٣١)،تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤١٨هـ. البريكان ، منهج ابن تيمية في تقرير التوحيد، (٢/٤٧٧-٤٧٨)، دار ابن القيم ودار ابن عفان، ط١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م. المحمود، عبدالرحمن بن صالح، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، (٣/١٠٢١-١٠٢٤)،مكتبة الرشد-الرياض، ط١ ، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م. الخلف، سعود بن عبدالعزيز، أصول مسائل العقيدة عند السلف،(١/١١٢-١١٣)، ١٤٢٠هـ.

وقبوله إلا مكابر في ذلك لعلمه ومعقوله، ولذلك وما فيه من الإمكان وما يدخل به على أهله من النقصان، ما تقدس الله عنه عز وجل، وتطهر منه جل جلاله بذلك أحول محال، إذ في أن يكون شيء له ولدا أو أن يكون لشيء أصلا محتدا إبطال الإلهية والربوبية، وزوال الأزلية والوحدانية(١)".

وهذا ما يسميه أهل العلم بدليل الإمكان والوجوب، وهو مندرج تحت دليل الحدوث المسمى دليل الجواهر والاعراض، ويعتبر من مقدماته وهو يشمل عنصرين: أ- إمكان الذوات ب- إمكان الصفات(٢).

وهذه الطريقة هي عمدة الفلاسفة، وأخذها عنهم المتكلمون ليردوا بها عليهم، ويبطلوا مذهبهم في قولهم بقدم العالم(٣).

نقد منهج القاسم في الاستدلال بدليل الحدوث:

وبعد هذا العرض لكلام القاسم وآراء المتكلمين وطريقتهم حول هذا الدليل، وهو أن العالم حادث وله محدث وهو الله، فقد ناقش العلماء هذا الدليل بعمق وبينوا فساده من وجوه عدة منها(٤):

---

(١) رسالة الرد على النصارى (ص١٧) . وانظر الرد على النصارى (ص ٢٤).

(٢) انظر: الباقلاني، محمد بن الطيب ، تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل ، (٣٧٧-٣٧٨)، المحقق: عماد الدين أحمد حيدر ،مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م . عطا صوفي ، عبدالقادر بن محمد ،الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات، (٢٤٧/١-٢٦٦)، مكتبة الغرباء الأثرية،ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

انظر: ابن تيمية ، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية،(١٢٩/١-١٣٠)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ . عفيفي، عبدالرزاق، مذكرة التوحيد (ص ١٥)، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية، الطبعة ١، ١٤٢٠هـ.

(٤) انظر: انظر: البريكان، منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير عقيدة التوحيد ،(٤٨٢/٢-٤٨٤). السلمي، عبدالرحيم، حقيقة التوحد بين أهل السنة والمتكلمين، (ص ٢٠١)، دار المعلمة للنشر.

١- أن الأنبياء والمرسلين لم يأمروا أحدا بسلوك هذه الطريقة، ولو توقفت معرفة الصانع عليها لكانت واجبة، ولكان تبليغها واجبا، وأقل الأحوال تكون مستحبة فلو كانت كذلك لبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- إن هذا الدليل لم يستدل به أحد من الصحابة ولا التابعين، فلو كانت معرفة الله تعالى وربوبيته متوقفة عليها لكان لزاما أنهم غير عارفين بالله ولا مؤمنين به، وهذا كفر باتفاق المسلمين.

٣- أنها طريقة طويلة وعرة المسالك مع أنها غير موصلة للمطلوب، إذ ليس فيها أن الله هو الرب والخالق للعالم، بل غايتها إثبات واجب للوجود أو مؤثر في الخلق الموجود(١).

٤- ما يدل على بطلان جعل هذا المسلك أصلا ودليلا هو اللوازم الباطلة المترتبة عليه، وإذا كان اللازم باطلا دل على بطلان ملزومه، ومن اللوازم التي التزمها القاسم في صفات الله تعالى كما هو مذهب المعتزلة، لأن الأجسام يعرف حدوثها بتعلق الأعراض بها، والأعراض هي الصفات وهي حادثة، فإذا ثبت ذلك، والدليل يجب اطراده فإنه يدل على حدوث كل موصوف بصفة قائمة به ولهذا نفى صفات لله تعالى كالعلو والاستواء(٢) والكلام(٣) والرؤية(٤) واليدين وغيرهما.

(١) النفيعي، منيف بن عايش، أثر الفكر الإعتزالي في عقائد الأشاعرة عرض ونقد ، (٢/٤٥١-٤٥٢)، رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ .

(٢) انظر مجموع الرسائل (١/٤٤٥-٤٤٦).

(٣) المصدر السابق (١/٣٧٢).

(٤) المصدر السابق (١/٥٨٧).

ويجدر التنبيه على أن الاستدلال بحدوث الأشياء، وتغيرها، وتحولها من حال إلى حال في ذاته استدلال صحيح نبه عليه القرآن في مواضع عدة، لكن المنتقد عليهم طريقتهم في إثبات حدوث العالم، مما دفع العلماء للرد عليهم، وذكر شيخ الإسلام الاتفاق على بدعية طريقتهم وأنها مذمومة(١).

ويختم القول في هذا الدليل ؛ أنه لا يعد دليلا سالما من الاعتراضات، سليما من المحاذير.

١-دليل التمانع:

تعريفه لغة:

قال الخليل: منَعْتَهُ أمْنَعهَ مَنعا فامتنع، أي حلّت بينه وبين إرادته، ورجلٌ منيعٌ لا يخلص إليه، وهو في عز ومنعة، وامرأة منيعة مُمْتنعة لا تؤتى على فاحشة(٢).

وقال ابن فارس: "الميم والنون والعين أصل واحد، هو خلاف الإعطاء"(٣).

تعريفه اصطلاحا:

التمانع مصطلح لأهل الكلام ذكروه في شرح اعتقادهم في التوحيد، ويريدون به التمانع الناشئ عن تقدير تعدد القادرين التاميّ القدرة، فإنهم حينئذ يتمانع فعلهم في المصنوعات أو إرادتهم لها، فلا يوجد شيء من الموجودات مع هذا

---

(١) انظر: ابن تيمية، جامع الرسائل،(١/٤٤٥-٤٤٦)، المحقق: محمد رشاد سالم، دار العطاء-الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) العين (٢/١٦٣) وانظر ابن منظور، لسان العرب (٨/٣٤٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٢٧٨).

التمانع، وهذا هو البرهان على التوحيد لله عندهم، لأن الموجودات مشاهدة ووجودها يبطل التمانع فيبطل التعدد فنُثبت الوحدانية لله [١].

واتفق المتكلمون على أن التمانع مذكور في آية الأنبياء [٢] وهو قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ،وجرى على طريقتهم القاسمُ، حيث استدل بدليل التمانع في رسالته الرد على النصارى، بقوله : "وفي القول في الولادة والاشتباه ... لأنه لا يقدر مع تشابههما، أحدهما على إبطال الآخر، وإذا لم يقدر على إبطال الآخر كان عاجزا غير قادر، ومن كان عن شيء من الأشياء كلها عاجزا كان عجزه له في الربوبية والإلهية عاجزا. وإن قال قائل: كان كل واحد منهما قادرا على إبطال نظيره ففي ذلك أدل الدلائل على نقص كل واحد منهما وتقصيره، وإذا كان كل واحد منهما منقوصا مقصرا لم يكن من الأشياء كلها لشيء صانعا ومدبرا ليس له كفؤ من الأشياء كلها ولا مثل ولا نظير" [٣].

وقصد بكلامه هذا دليل التمانع الذي يستشهدون له بآية الأنبياء، وقد ناقش أهل العلم هذا الدليل عند المتكلمين، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فهو يوافق المتكلمين في أن هذه حجة عقلية صحيحة، ولكنه ينكر عليهم أن هذه هي طريقة القرآن في آية الأنبياء.

---

(١) انظر: الجهني، محمد أبو سيف، التمانع الدال على التوحيد في كتاب الله ونقد مسلك المتكلمين، (ص ١٠٧) ، مجلة جامعة ام القرى لعلوم الشريعة والدراسات، عدد ٤٥، ١٤٢٩هـ .

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٣

(٣) رسالة الرد على النصارى، ص ٢٣-٢٤

ويرى أن المقصود من الآية إنما هو امتناع الإلهية من جهة فساد عبادة ما سوى الله تعالى [(١)]، والتأله له الذي هو تعلق القلب به إرادة وقصدا وهو أصل العبادة.

فمراد الآية – كما يرى ابن تيمية – هو تقرير توحيد الألوهية؛ أي امتناع وجود إله يستحق العبادة مع الله تعالى، وهو متضمن لتوحيد الربوبية أيضا [(٢)].

ويجدر التنبيه أنه لو كان القاسم استدل بدليل التمانع للاحتجاج على النصارى في إثبات ربوبية الله تعالى وحده وإبطال ما سواه فقط؛ لكان احتجاجه صحيحا؛ غير أن هذا الدليل كان يستدل به في تقرير عقيدته كما في مصنفاته[(٣)].

ويحسن القول في سبيل جمع القولين السابقين والتوفيق بينهما؛ بما ذكره العلامة عبدالرحمن السعدي أن الآية دلت على بطلان اتخاذ الآلهة التي تُعبد مع الله تعالى من خلال إبطال ربوبيتهما، وذلك ببيان اللازم لتعدد الأرباب من حتمية الصراع المفضي إلى خراب العالم، والآية تجمع الدلالة على المطلبين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية [(٤)].

فخلاصة القول: أن دليل التمانع الذي ذكره القاسم واستدل به على تقرير التوحيد عليه مؤاخذات لأهل العلم؛ منها:

---

(١) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، (٣/٣٣٤-٣٣٥)، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود،ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر: هراس، محمد خليل، ابن تيمية السلفي ونقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الالهيات،(ص ٨٢) ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٣) انظر: الدليل الكبير في مجموع الرسائل (١/٢٢٤)، ومناظرة مع ملحد (١/٣٠٤-٣٠٦).

(٤) انظر: تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/١١٠-١١١). المحقق: اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١٤٢٠،١هـ ٢٠٠٠م.

أ- يختلف الرأيان في نتيجة التمانع بين تقرير القاسم وتقرير شيخ الإسلام، فنتيجته عند القاسم هي امتناع وجودٍ فاسدٍ في التدبير لامتنع تعدد الخالقين القادرين، اما النتيجة عند شيخ الاسلام هي امتناع تعدد الآلهة المستحقة للعبادة لامتناع فساد الوجود ونظام التدبير.

فالنتيجتان مختلفتان، فالثانية تتضمن التوحيدين الألوهية والربوبية، ويتقرر الثاني بالأول، وفيهما معا مجتمعان معنى التمانع.

أما الأولى فتتضمن توحيد الربوبية فقط ولا تتضمن توحيد الألوهية[١].

ب- إن التمانع في القرآن ورد لإبطال الشرك الواقع من المدعوين المخاطبين في العبادة كما يرى ابن تيمية، أما التمانع وفق مراد القاسم والموافقين له؛ فوارد لإبطال أقوال الفلاسفة بقدم العالم[٢].

والقرآن الكريم جاء بالطرق الميسورة الموافقةِ للفطرة والعقل في عدة مواضع، ويقرّر إفراد الله تعالى بالألوهية المتضمن الإقرار بالربوبية، ولذلك استَدرِكُ على القاسم بهذه المؤاخذات.

٢- دليل الإحكام والإتقان:

تعريفهما لغة: الإحكام:

قال الخليل: "الحكمة مرجعها الى العدل والعلم والحلم، ويقال أحْكَمَتْهُ التجاربُ اذا كان حكيما، وأحْكَمْ فلان عني كذا أي مَنَعَهُ، وكل شيء منعْتَهُ من الفساد فقد حَكَمْتَه وأحْكَمْتَه"[٣].

---

(١) انظر: الجهني ، التمانع الدال على التوحيد، (ص ١٢٣). ملكاوي، عقيدة التوحيد في القرآن،(٢٧٣-٢٧٤)، مكتبة دار الزمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) انظر: ابن تيمية ، تلبيس الجهمية، (١٣٨/٣).

(٣) العين، (٦٧/٣).

يقال حَكَمْتُ الدّابةَ وأحْكَمْتُها، ويقال حكَمْتُ السفيه وأحْكَمْته إذا اخذت على يده.

وأما الإتقان لغة:

قال ابن فارس: (تقن) التاء والقاف والنون أصلان: أحدهما إحْكامُ الشيء والثاني الطيب والحمأة، فالأول أتقنت الشيء أحْكَمْته[1].

وأما معنى هذا الدليل اصطلاحا:

هو الاستدلال بما في العالم من إحكام وإتقان على علم الفاعل الدال على ذات الفاعل[2] دلالة الصفة على الموصوف ، ويلاحظ أن معنى هذا الدليل مما قد جاء في دليل الحدوث، فيُثبَتُ الحدوثُ والإمكانُ، ثم الاستدلالُ بما فيه من الإحكامِ والإتقانِ ، وبناء على ذلك فكل ما يمكن مناقشته واستدراكه راجع إلى دليل الحدوث ومبنيٌّ عليه.

وهذا المعنى بناءً على مراد المتكلمين؛ لأن القاسم يُحسب على المدرسة الاعتزالية الكلامية، ومن الموضوعية والإنصاف أن أبيّن عدمَ إرادتِهِ لهذا المعنى.

وحتى نعرف مراد القاسم من هذا الدليل أنقل كلامه كما في الرسالة التي أدرسها وأُحللها؛ قال في رده على النصارى في إثبات ربوبية الله تعالى: "فكفى بذلك دليلا بيّنا على أن لهذا الصنع العجيب صانعا، لا والدا له ولا مولوداً، حجج الله المنيرة في ذلك عليهم، ففي أقل من ذلك بمنّ الله ما يشفيهم من كل سقم وكل عمى عارضهم فيه أو داء، ويكفيهم من كل فضل إذا رأوه اهتدوا"[3].

(١) معجم مقاييس اللغة (١/٣٥٠).

(٢) انظر: البريكان، منهج ابن تيمية في تقرير التوحيد، (٢/٤٨٨)

(٣) رسالة الرد على النصارى، (ص ٢٦).

وقال: "وإذا صح أن السماوات والأرض وما فيهن لله، وأن قيام ذلك ووجوده وصنعه بالله ، وما قضى من أمر؛ فإنما قضاؤه له بأن يبتدع صنعه وفعله، لا بنصب ولا علاج ولا أداة ومعاناة، ولكنه يتم كونه إذ هو أراده وشاءه .. ولما أن صح بأحق الحقائق وأوجد ما يكون من الوثائق أن السماوات والأرض ومن فيهن لا تكون أبدا إلا من واحد صح أن ذلك لا يكون أبدا من مولود ولا والد"[١].

وأقول إن منهج القاسم في استدلاله بدليل الصنع، منهج سليم، ولعل ذلك من الاختلاف بينه وبين المعتزلة، فإثبات وجود الله وربوبيته بهذا الدليل مما وُفّق إليه القاسم، وبيّن شيخُ الإسلام ابن تيمية مكانة هذا الدليل العقلي بقوله: " أفعاله المحكمة المتقنة دلت على علمه وهذا مما وقع الاتفاق عليه من هؤلاء (أي بعض المتكلمين)، فإنهم يسلمون أن الأحكام والإتقان يدل على علم الفاعل، وهذا أمر ضروري عندهم وعند غيرهم ، وهو من أعظم الأدلة العقلية التي يجب ثبوت مدلولها، والإحكام والإتقان إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب لتحصل به الحكمة المقصودة منه"[٢].

وخلاصة القول في هذا الدليل: أن القاسم يرى ضرورة الاستدلال لإثبات الصانع بالآيات الكونية، وهذه الآيات يلزم من العلم بها العلم بالله تعالى وهذه الطريقة سليمة خالية من تعقيد المتكلمين.

---

(١) المصدر السابق، (ص ٢٨).

(٢) ابن تيمية، النبوات (٢/٩٢٠-٩٢١)، تحقيق: عبدالعزيز الطويان، أضواء السلف-الرياض،ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

القسم الثاني من الأدلة: الأدلة النقلية، وهما دليلان:

١- قاعدته في التنزيه القائم على النفي المفصل، واستشهد لذلك بآيات من القرآن الكريم ويتضح ذلك من كلام القاسم بقوله: "فليس يوجد أبدا الواحد الأزلي الذي ليس له مثل لا نظير ولا كفؤ إلا الله تقدست أسماؤه وجل ذكره وثناؤه، وفي ذلك وبيانه ومن حججه وبرهان ما يقول الله عنه أن يحويه قول او يناله، فيما نزل من كتابه المجيد في سورة الإخلاص والتوحيد: "قل هو الله أحد". والأحد من ليس له والد ولا ولد".

وقال: " فيكون الله فيما يُسمى به منها كفيّا، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه، ومما نزل من البيان على عباده، فيما كان لله تبارك وتعالى من أسمائه الحسنى متسميات {رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا} ، فمما نزل سبحانه أنه ليس له كفؤ ولا نظير ،ما يقول {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[(١)]".

ذكرت فيما سبق تعريف القاسم للتوحيد، وهو المبني على أساس النفي بقصد التنزيه لله تعالى عن المثيل والنظير – بفهمه – ، ومآل هذا النفي: نفي وجود إله أزلي غير الله تعالى، وكذلك يشمل نفي الصفات عن الله تعالى كما يقرر في رسائله[(٢)].

واستشهد القاسم بآيات القران التي ينفي الله تعالى عن نفسه الكفء والسميّ والمثيل، وهذه طريقة المتكلمين عموما والمعتزلة خصوصا[(٣)].

---

(١) رسالة الرد على النصارى، ص ٢٥-٢٦.

(٢) انظر: مجموع الرسائل (١/٢٣٧) (١/٤٥١).

(٣) انظر: القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، (ص ٤٤٧)

ويُنتقد هذا الاستدلال على القاسم؛لأن القرآن جاء بالنفي المجمل، والمتضمن كمال ضد المنفي، والإثبات المفصّل، وتظهر مخالفة المعطلة للقرآن عندما ينزهون الله عمّا وصف به نفسه من الكمال حتى عقد الإمام ابن قيم الجوزية مقارنة بين تنزيه الرسل الموافق للقرآن وتنزيه المعطلة(١)، وبيّن أهل العلم أن النفي المطلق لا يُعدّ مدحا ولا تنزيها، ولذلك كان النفاة أقل الناس تمجيدا وتحميدا لله تعالى، أما المعنى من الآية التي استشهد بها القاسم هو: هل تعلم له سميا أي مساميا ومشابها ومماثلا من المخلوقين، وهذا استفهام بمعنى النفي لأن الله هو الرب وغير مربوب، وهو المستحق سبحانه للعبادة وحده ، وأن عبادة ما سواه باطلة(٢) .

٢- استدل القاسم بالآيات التي سبح الله بها نفسه من ادعاء النصارى الولد له على ربوبية الله ووحدانيته، قال القاسم: " ففي ذلك ما يقوله الله تعالى لهم كلهم جميعاً ، ولكل من كان من غيرهم لقوله فيه سميعا ، لمن لم يعم عن قول الله فيه

---

(١) انظر: كتاب الروح (٢٦١-٢٦٢)، دار الكتب العلمية-بيروت،

(٢) انظر: الطبري، محمد بن جرير جامع البيان عن آي القرآن للطبري،(١٥/٥٨٥-٥٨٦)، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١ ، ١٤٢٢هـ - .

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق، أسعد محمد، (٧/٢٤١٤)، مكتبة نزار الباز-السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ .

ابن كثير، إسماعيل بن عمر ، تفسير القرآن العظيم، (٥/١٩٠) ،(٥/٢٢٠) ، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١ ، ١٤١٩ هـ .

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير (٢/٤٠٤)، دار ابن كثير ودار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ .

السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص ٤٩٨)، (ص ٩٤٦).

الشنقيطي، محمد الأمين، اضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٣/٣٦٨)، دار الفكر للطباعة والنشر-بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

عماهم، ولم يعتد على الله فيه اعتداءهم {وقالوا اتخذ الله ولدا}، فقال الله إكبارا لقولهم فيه وردّاً، {**سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون**}"[1].

وقال: "وتأويل سبحانه ومعناها فليعرف ذلك من قرأها، إنما هو بُعد الله وتعاليه عما قالوا من اتخاذ الولد فيه[2]".

واستشهاد القاسم بالآية على مراده صحيح ، فتنزُّهُ الله تعالى عن اتخاذ الولد هو تنزهه وتقدسه عن كل وصف وصفه به الظالمون، مما لا يليق بالله تعالى ، وبذلك يتقرر أن الله تعالى هو الخالق القادر المدبر، وحده لا ند له ولا نظير ولا كفء ولا مثيل، فهو سبحانه غني عمن سواه ، وسواه اليه فقير، فلا يكون أحد منهم ولدا، فسبح الله نفسه لما قالوا بالبهتان عليه، وهذه الدلالة التي ذكرها القاسم سليمة صحيحة وافق اهل العلم فيها [3].

---

(١) رسالة الرد على النصارى، (ص ٢٦).

(٢) المصدر السابق، (ص ٢٧)

(٣) انظر: الطبري: جامع البيان عن آي القرآن ،(٢/٤٦١).

ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (١/٢٧٥-٢٧٧)

السمعاني، تفسير القرآن ،(١/١٣٠).

الشوكاني، فتح القدير (١/١٥٥-١٥٧).

السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (ص ٦٤٠).

الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،(٩/١٥١-١٥٣).

الخاتمة

في نهاية هذا البحث يتبين أن للقاسم منهجا سار عليه في تقرير التوحيد، حيث استدل له بأدلة متنوعة خالف فيها طريقة أئمة الحديث في زمانه، وقد انتهيت إلى عدد من النتائج والتوصيات.

أما النتائج، فمنها:

١- ذاع صيت القاسم بين أوساط العلويين وبعض المعتزلة، فنادت الألسن وسالت المداد ببيان فضله ومكانته.

٢- قرر القاسم التوحيد وفق منهجه الكلامي العقلي المقارب لمنهج المعتزلة، وكان بقصد إبطال شرك النصارى.

٣- يعتقد القاسم أن التوحيد الواجب اعتقاده هو توحيد الربوبية، ويستدرك عليه أن الرسل جاؤوا لتقرير توحيد العبادة، وأن كفار قريش لم ينكروا ربوبية الله تعالى.

٤- شابه القاسم المعتزلة في تقريره دليل التمانع، وأن القرآن جاء به.

٥- يظهر منهج القاسم العقلي واضحاً جليّاً عند إثبات وجود الله بدليل الجواهر والأعراض.

٦- وُفّق القاسم لدليل الإحكام والإتقان لأنه دليل شرعي صحيح، ولم يوافق فيه طريقة المعتزلة في تقريره.

وأما التوصيات:

لقد غفلت الأبحاث العلمية مكانة القاسم الرسي العلمية في مذهبه الزيدي الكلامي؛ مما يدعو للاستغراب، ولذلك يظهر لي جملة من التوصيات التي أراها تستحق الاهتمام والذكر:

١- القيام بدراسة عقدية نقدية لآراء القاسم على ضوء الكتاب والسنة؛ لأن مؤلفاته ورسائله امتلأت بتقرير عقيدته والدعوة إليها، والاستدلال لها بالأدلة النقلية والعقلية، وطعنه فيمن خالفها ولم يقل بها.

٢- إقامة دراسة عقدية مقارنة بين آراء القاسم وآراء القاضي عبدالجبار المعتزلي، ومحاولة الوصول لمعرفة مدى التقارب والتوافق بين القاسم والمعتزلة.

فهرس أهم المصادر والمراجع

١- المحلي، العلامة حميد الشهيد المحلي، الحدائق الوردية (ت ٦٥٢) تحقيق: د.المرتقى بن زيد المحطوري الحسني، مطبوعات مكتبة مركز بدر العلمي — صنعاء، ط١، (١٤٢٣ هـ — ٢٠٠٢م).

٢- عبدالسلام الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٣- عبد الله بن الإمام يحيى بن الحسن، الجداول الصغرى مختصر الطبقات الكبرى، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية-عمّان.

٤- المؤيدي، التحف شرح الزلف، مكتبة بدر للطباعة والنشر-صنعاء.ط٣ ، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

٥- أبو نصر البخاري، سر السلسلة العلوية، منشورات المكتبة الحيدرية - النجف، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

٦- حسن خضيري أحمد، قيام الدولة الزيدية في اليمن، الناشر: مكتبة مدبولي- القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.

٧- الهادي، الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، الأحكام في الحلال والحرام، جمع وترتيب علي بن الحسين بن أبي حريصة، تحقيق: د.المرتضى بن زيد المحطوري، مكتبة بدر للطباعة، ط١، ١٤٣٤هـ — ٢٠١٣م

٨- أبو زهرة، محمد محمد أحمد مصطفى ، الإمام زيد حياته وعصره ، دار الفكر العربي.

٩- الإمام الهاديِ بن إبراهيم الوزير، نهاية التنويه في إزهاق التمويه، مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية.

١٠- رسالة أصول العدل والتوحيد: لعدة مؤلفين: تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، ط٢ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٨م .

١١- عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: عبد الكريم عثمان. ط: الأولى ١٣٨٤ هـ الاستقلال – مصر.

١٢- عبدالجبار، المغني في أبواب العدل والتوحيد، تحقيق: إبراهيم مدكور، وطه حسين، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي – القاهرة.

١٣- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد ،الملل والنحل، مؤسسة الحلبي.

١٤- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر العقل، دار عالم الكتب-بيروت، ط٧ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٥- الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٦- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة،تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٧- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ.

١٨- ابن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤١٨هـ .

١٩- البريكان، منهج ابن تيمية في تقرير التوحيد، دار ابن القيم ودار ابن عفان، ط١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م .

٢٠- المحمود، عبدالرحمن بن صالح، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، مكتبة الرشد- الرياض، ط١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٢١- الخلف، سعود بن عبدالعزيز، أصول مسائل العقيدة عند السلف، ١٤٢٠هـ.

٢٢- الباقلاني، محمد بن الطيب ، تمهيد الأوئل في تلخيص الدلائل ، المحقق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٣- عطا صوفي، عبدالقادر بن محمد ،الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات، مكتبة الغرباء الأثرية،ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٤- ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢٥- عفيفي، عبدالرزاق، مذكرة التوحيد، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية، الطبعة ١، ١٤٢٠هـ.

٢٦- السلمي، عبدالرحيم، حقيقة التوحد بين أهل السنة والمتكلمين، دار المعلمة للنشر.

٢٧- النفيعي، منيف بن عايش، أثر الفكر الإعتزالي في عقائد الأشاعرة عرض ونقد، رسالة دكتوراه في جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ.